

لغة القرآن في الفطية في مصر والبونيقية في الشمال الافريقي والبطية في العراق واللاتينية في الشام

لأستاذ عبدالسلام هارون
رئيس قسم اللغة العربية
(جامعة الكويت)

القرآن الكريم والسنة النبوية ، في سرعة مذهلة ، بأقلام المسلمين من العرب والاعاجم ، ثم تطورت الى خدمة العلوم الكونية التي بحث الدين على تحصيلها بمقتضى الامر الديني بالنظر في ملكوت السموات والارض ، والى خدمة العلوم السياسية والتنظيمية والتاريخية التي اقتضتها سياسة الحكم الاسلامي لتنظيم الادارة وجباية الخراج ، وما استتبع ذلك من التأليف في علوم الجغرافيا وتاريخ الشعوب التي اظلمت الاسلام . اقول : ان ظاهرة التأليف باللغة العربية التي يستطيع المطلع على كتب التصانيف ، مثل كتاب كشف الظنون لملا كاتب جليبي ان يدرك انها جاوزت في العدد مئات من فروع العلوم المختلفة ، تبارت فيها اقلام العرب والاعاجم كانت عاملا قويا في انتشار هذه اللغة الكريمة . ويكفي ان نذكر ان صاحب أول كتاب في النحو العربي رجل أعجمي هو سيبويه . ولا ريب انه لم يتوجه الى ذلك الا بالدافع الديني الذي ساقه الى خدمة لغة القرآن والحديث . وكذلك نلمح هذا الدافع في الكثرة الاعجمية من رجال الحديث ، والفقهاء الاسلامي والتفسير وعلوم العربية .

ولقد بلغ السلطان الديني للاسلام ان استطاع ان يمحو اللغة القبطية في مصر ، التي كانت تطورا من اللغة المصرية القديمة الحضارة ، في زمن وجيز وان

لا ريب ان الاسلام الذي نزل كتابه باللغة العربية ، ونطقت سنته باللغة العربية ، وانطلقت السنة صحابة رسوله بهذه اللغة ، وهي كلها في مجموعها من اصول التشريع الاسلامي - لا ريب انه كان العامل الاول في انتشار اللغة العربية على نطاق واسع سريع في انحاء المعمورة قديما وانه لولا النكسات السياسية التي صنعتها الفارات التتريية ، والنكسات الاجتماعية التي ساقتها التيارات الشعبية ، لفطت هذه اللغة مساحة تفوق المساحة التي استقرت فيها الان .

واللغة العربية قبل القرآن والسنة لم تكن تدور الا في نطاق محدود بين العراق والحجاز شرقا وغربا ، وتخوم الروم وبلاد اليمن شمالا وجنوبا ، فان تنقل العرب كان محدودا بهذه الجزيرة العربية ، ولم يكن لها اثر يذكر في البلاد المجاورة كالفرس والروم والاحباش . ولكن الوثبة الاسلامية ساقطت هذه اللغة الى بلاد الصين شرقا والمحيط الاطلسي غربا في مدة لا تتجاوز القرن الاول الهجري بمقتضى الفتوح والدعوة الاسلامية وهو انتشار قوي في سرعته ، لم يعهد له نظير في اي لغة اخرى .

واذا اضفنا الى الفتوح والدعوة الاسلامية ظاهرة التأليف باللغة العربية التي بدأت في اول امرها لتخدم

يقضي كذلك على لغة القرطاجيين وغيرهم في شمالي افريقية ، وعلى لغة النبط في شمالي العراق ، وأن يقلص ظل اللغة الرومية من الاطراف الشمالية لبلاد الشام ، كما استطاع ان يغير وجه اللغة الفارسية بمنحها اكثر من 30 ٪ من الفاظها ، وكذلك امكن هذا السلطان ان يترك في جنوبي ايطاليا وصقلية وفي تركيا واسبانيا وجنوب فرنسا اثرا ظاهرا دامغا تفاوتت درجاته في القلة والكثرة .

ولم تستطع اية لغة اخرى ان تترك اثرا ملموسا في اللغة العربية الفصيحة التي حرصت على نقائها وصفائها ، ولا اثرا واضحا في لهجاتها العامية التي هي بطبيعتها اشد استجابة للغات الدخيلة .

اما القول بان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام فقول يحيطه التحفظ ، فالاسلام انما انتشر بمبادئه واصوله الفطرية السليمة . يدل على ذلك هذه الملايين المسلمة التي لاتعرف من العربية قليلا ولا كثيرا ، وهذه الآلاف التي تعتنق الدين الاسلامي من الاوربيين والامريكيين والافريقيين والاسيويين لا عن وراثة ورتوها ، ولا عن امة وجدوا عليها آباءهم ، بل بالقراءة والتدبر في لغاتهم الاجنبية التي يظنمون بها على مبادئ هذا الدين الحنيف . على حين لا نجد هذه الاعداد في المعاصرين من معتققي الديانات الاخرى الا بالارغام السياسي او التبشيري المتطرف .

ومن الحق ايضا ان اقول : ان اللغة العربية كانت سببا في انتشار الاسلام بين من كانوا يتكلمون باللغة العربية في شبه جزيرة العرب ، ثم من جاء بعدهم من الاجيال التي درست العربية او صارت العربية لغتها . ذلك ان اعجاز القرآن ، وهو مظهر التحدي الصريح الذي نطق به القرآن في قوله « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » كان هذا الاعجاز حقيقة واقعة الجمت العرب انفسهم وجعلتهم يدركون منطقيا ان مستوى بيان هذا الكتاب فوق مستوى البشر . ويسجل التاريخ عدة محاولات حاول اصحابها ان يباروا هذا القرآن او ان ينسجوا على منواله ، فباءوا بفشل واضح ، وكان هذا بمثابة الدليل القاطع على انه كتاب سماوي يحق للبشر ان يدينوا بدينه وان يؤمنوا به وبمن انزل عليه .

ومن هنا نستطيع ان نقول : ان اللغة العربية من الاسباب الجوهرية لانتشار الاسلام بين من يتكلمون العربية او يتعلمونها ، وليست هي كل الاسباب التي انتشر بها الاسلام .

واما ارتباط الوعي الاسلامي والوازع الديني بما يعترى لغة الضاد من قوة وضعف فيمكن الاجابة عليه مما سبق من القول وهو ان الاسلام ليس لغة واثفاظا ، وانما هو مبادئ ومثل عليا للبشرية جمعاء يستطيع المتدين ان يتمثلها في أي لغة وفي أية الفاظ كانت ، ما دامت تعبر عن تلك المبادئ وتصور هاتيك المثل . وهناك اهم اسلامية معاصرة لا تتكلم بالعربية ولا تفهم دين الاسلام بلغة العرب ، وانما تستمد وعيها الاسلامي ووازعها الديني من قبل لغاتها نفسها ، وفيها ائمة للدين يتعلمونه ويعلمونه بلفتهم كما هو الحال في اندونيسيا والملايو والباكستان حيث ترجم عدد كبير من امهات الكتب الدينية الى تلك اللغات ، والفت كذلك الكتب في مختلف مراحل الثقافة الدينية بين صفار المتعلمين وكبارهم ، وقامت الى جوار ذلك معاهد دينية وكليات اسلامية يدرس فيها الدين باللغات المحلية . ولكننا نستطيع ان نقول من زاوية اخرى : ان الوعي الاسلامي الكامل اي الادراك السليم لمفاهيم الاسلام لا يتأتى الا بفقهاء لغة الكتاب وفهمها ، وذلك الفقه والفهم انما يتسنى على وجهه الصحيح لمن كان له حظ فهم اللغة العربية نفسها ، وذلك لما يتطلبه النص العربي ولا سيما الديني منه ، من احساس لغوي خاص ، ومن دقة في ادراك مرامي الاساليب العربية .

واما الوازع الديني فانه لا يواكب اللغة العربية تلك المواكبة التي يجري عليها الوعي الاسلامي فانما يحكم هذا الوازع البيئة التي يعيش فيها المسلم . ونحن في عصرنا الحاضر قد نجد الوازع الديني في بعض البلدان غير العربية ذا سلطان اعظم من سلطانه في بلاد يتكلم أهلها بالعربية ، لان الوازع يتأثر بالبيئة الاجتماعية والبيئة السياسية اكثر من تأثره بالبيئة الثقافية ، لان الوازع من الظواهر النفسية التي تكون نتيجة لتفاعل المجتمع . ومن البديهي انه لا تلازم بين العلم بالدين والوازع الديني ، ففي الشعب الواحد نجد ان الوازع الديني يتجلى بسلطانه في الطبقات التي هي اقل ثقافة . وهذا امر تقره المشاهدة والعيان .

واما تأثير اللهجة الاقليمية في التعابير العربية المحلية فقد كان واضحا بعض الوضوح في العهد القريب الذي كانت وشائج العروبة فيه في شبه تمزق

وأما السؤال الأخير الخاص بالمكانة التي يجب أن تحتلها العربية في موطن مصر بالنسبة للغات الأجنبية ، فاني أعتقد أن اجابته موحدة بين كل مثقف عربي ، وهو أن يكون للغة العربية السلطان الاول في اللغات الثقافية المحلية ، وأن تكون هي لغة العلم المحلية .

وأعتقد أن المحاولات التي بدأت في الجامعات المصرية لتعريب التدريس الجامعي تنسم بكثير من النجاح وان كانت الجمهورية السورية قد قطعت في ذلك شوطا أطول من شوط الجمهورية العربية المتحدة . والامل مفعود في أن يتم تعريب التدريس الجامعي في تودة وتنسيق حتى يصل الى المستوى العالمي .

بفعل الاستعمار ، وكانت لغة الصحافة ولغة المكاتبات متباينة في بلادنا العربية وهذه الظاهرة الآن في طريق الاضمحلال بمقتضى تقارب الشعوب العربية وسهولة الانتقال بين اطرافها . ونحن الآن في الكويت نجد صدى كبيرا للهجتنا المصرية بين المواطنين الكويتيين الذين درسوا في مصر ، أو قام بالتدريس لهم في الكويت مدرسون مصريون ، أو الذين تفاعلوا مع وسائل الاعلام .

وكذلك نجد كثيرا من المصطلحات اللغوية السورية قد اخذت طريقها الى مصر ورسخت فيها ولا سيما في ايام الوحدة السياسية القريبة . ومهما يكن من تقارب بين شعوبنا العربية فاني أعتقد أن لكل موطن من مواطن العروبة تراثا لغويا يسري في دمايه ولا يمكن التخلص منه ، الا اذا امكن التخلص من الفولكلور الشعبي .

